

النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم وثب. وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا سلم وثب. وكان عمر رضى الله عنه إذا سلم وثب. وفى الخبر المشهور أنه لم يكن يقعد إلا قدّر قوله اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، ثم ينصرف. وإن تحول المأموم فصلّى النافلة فى غير مكان الفريضة ولو بقدم فصّسن، ففى ذلك أثر، فإن جلس قليلاً للتسييح والدعاء فلا بأس. وهذا آخر كتاب الإمامة.

الفصل الثالث والأربعون

فى كتاب الاخوة فى الله تبارك وتعالى. والصحة والمحبة للإخوان . وأحكام المواخاة وأوصاف المحبين

نكّر الله عز وجل عباده المؤمنين نعمته عليهم فى الدين إذ ألف بين قلوبهم بعد أن كفروا متفرقين، فأصبحوا بنعمته إخواناً بالألفة متفقين، وعلى البرّ والتقوى مضطجعين، ثم ضمّ التذكرة بالنعمة عليهم إلى تقواه، وأمر بالاعتصام بحبله وهُداه، ونهى عن التفرّق إذ جمعهم الدار وقرن ذلك بالمنة منه عليهم، إذ أنقدهم من شفا حفرة النار. وقد جعل ذلك كله من آياته الدالة عليه سبحانه وتعالى وسبّله الواصلة بالهداية إليه، فقال فى جمل ما شرعناه «بها أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تفرّقوا» إلى «ولعلمكم تهتدون».

وقد كانت المواخاة فى الله تعالى والصّحة لأجله، والمحبة له فى الحضر والسفر، طرائق للعاملين. فى كل طريق فريق، لما فى ذلك من الفضل، ولما جاء فيه من الأمر والندب، إذ كان الحب فى الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان، وكانت الألفة والصّحة لأجله والمحبة والتزاود من أحسن أسباب المتقين. وقد كثرت الأخبار فى تفضيل ذلك والحثّ عليه. وليس قصدنا الجمع لما روى ليلنا إلى الإيجاز فى كل فن، ولكن نذكر الأفعال المستحسنة وما تعلق بها معاليد منه. على أن رأى التابعين قد اختلف فى التعرف، فمنهم من كان يقول أقلل من المعارف فإنه أسلم لدينك وأقلّ غداً لفضيحتك، وأخفّ لسقوط الحقوق عنك، لأنه يقال كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق، وكلما طالت الصّحة توكدت المراعاة. وقال بعضهم هل رأيت شراً إلا ممن تعرف، فكلما نقص من هذا فهو خير. وقال بعضهم أنكز من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف. وممن مال إلى هذا الرأى سفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم وداود الطائى والفضيل بن عياض وسليمان الخوامن ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعى

ويشر الحافى. وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان فى الله عز وجل بالتأليف والتحبب إلى المؤمنين، لأن ذلك زين فى الرخاء وعمون فى الشدائد، وتعاون على البر والتقوى وألفة فى الدين. وقال بعضهم استكثر من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك. وكانوا يأمرن بالأخوة ويتحاضون على الألفة. ويقال إذا غفر للعبد شفع فى إخوانه. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً غريباً فى تفسير قوله تعالى «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله»، قال يشفعهم فى إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم. وممن مال إلى هذا الطريق ابن المسيب والشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شهرمة وشريح وشريك بن عبد الله وابن عيينة وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل ومن وافقهم. وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقربكم منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً الذين يالفون ويؤلفون. وروينا عنه صلى الله عليه وسلم المؤمن مألوف ولا خير فيمن يالف ولا يؤلف. وقد قيل أول ما يرفع من هذه الأمة الخشوع ثم الورع ثم الأمانة ثم الألفة. وفى الخبر من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً، إن نسى نكره، وإن نكر أعانه. وروينا فى خبر مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تفسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلا أفاد الله عز وجل أحدهما من صاحبه خيراً. وروينا فى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آخى أخاً فى الله عز وجل رفعه الله عز وجل درجة فى الجنة لا ينالها بشيء من عمله. ويقال إن الأخوين فى الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض، لأن الأخوة عمل كالولادة. وقد قال الله سبحانه بعد قوله «ألحقنا بهم قراباتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء»، أى وما نقصناهم. وقال تعالى مخبراً عمّن لا صديق له حميم تنفعه شفاعته وهما لنا من شافعين ولا صديق حميم، ومعنى حميم أى هميم، أبدلت الحاء هاء لتقاربهما، مأخوذ من الاهتمام، أى مهتم بأمره، فيه دليل أن الصديق لك هو المهتم بك، وأن الاهتمام حقيقة الصداقة.

وروينا عن النهي صلى الله عليه وسلم المؤمن كثيراً بأخيه. وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أعطى عبداً بعد الإسلام خيراً من أخ صالح. وقال أيضاً إذا رأى أحدكم ودّاً من أخيه فليتمسك به، فقلما تصيب ذلك. وقد قال بعض الحكماء فى معناه كلاماً منظوماً:

ما نالت النفس على بھية * الأَمِين وَدَّ صَدِيقِ أَمِين

من فاته ودَّ أخٍ صالح * فذلك المقطوع منه الوتين

وقد يرُوى هذا المصراع الثانى فذلك المهبون حقاً يقين.

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كونوا مؤلفين ولا تكونوا منفرين. وفى الحديث إنَّ أحبكم إلى الله عز وجل الذين يالفون ويؤلفون، وإنَّ أبغضكم إلى الله عز وجل المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإخوان. وفى أخبار داود صلى الله عليه وسلم أنه قال: يارب كيف لى أن يحبني الناس كلهم وأسلم فيما بينى وبينك. قال: خالِقُ الناس بأخلاقهم وأحسنَ فيما بينى وبينك. وفى بعضها خالِقُ أهل الدنيا بأخلاق الدنيا، وخالِقُ أهل الآخرة بأخلاق الآخرة. وقال الشعبي لابن أخيه خصلتان أوصيك بهما فاحفظهما، خالصُ المؤمن مخالصة، وخالِقُ الفاجر مخالفة، فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وإنه لحقَّ عليك أن تتخالص المؤمن. وقد قال أبو الدرداء قبله إنَّا لنشكر فى وجوه أقوام، وإنَّ قلوبنا لتعلتھم، فمعنى هذا على الثقة والمداراة ليدفع بذلك شره وأذاه، كما جاء فى تفسير قوله تعالى «ادفع بالتي هي أحسن»، قيل السلام، «فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم». وكان ابن عباس يقول فى معنى قوله عز وجل «ويدروُن بالחסنة السيئة»، قال يدفعون الفحش والأذى وهو السيئة، بالسلام والمداراة وهو الحسنّة. وقد كان أفضل الحسنات إكرام الجلساء، ومنه قوله عز وجل «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض»، قيل بالرغبة والرغبة والحياء والمداراة. وكذلك معنى قولهم خالص المؤمن وخالق الفاجر، فالمخالصة بالقلوب من المودة واعتقاد المؤاخاة فى الله عز وجل، والمخالفة المخالطة فى المعاملة والمبايعة وعند اللقاء. وقد قال محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدأ حتى يجعل الله عز وجل له منه فرجا. فمعاملة غير تقىٍّ ومكالمته من أحوال الاضطراب، ومعاشرة التقىِّ ومصافاته من حسن الاختيار.

وأفضل الأخوة كما قال بعض العلماء المحبة الدائمة والألفة اللازمة من قبل أن الأخوة والمحبة عمل، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة به ل يتم العمل فيكمل أجره، فإن لم يختم له بالآخرة، ولم يحسن باقبة الصحبة والمحبة، فقد أدركه سوء الخاتمة، ويطل عنه ما كان قبل ذلك، فقد يصطحب الاثنان ويتواخى الرجلان عشرين سنة، ثم لا يختم لهما بحسن الأخوة،

فيحبط بذلك ما سلف من الصَّحبة، فلذلك شرط العالم المحبة الدائمة والألفة اللازمة إلى الوفاة ليُخْتَمَ له به. وقد يقال ما تواخى اثنان في الله عز وجل ففُتِرَ بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما، فقال بشرٌ إذا قصرَ العبد في طاعة الله تبارك وتعالى سلبه الله عز وجل من يؤنسه. ويقال للعدو شيطان قد وكله بالتفريق بين المتواخين ليس له عمل إلا ذلك قد تفرَّغ له. ومن علامة التَّقَى حُسْنُ المقال عند التفرُّق وجميل البشر عند التقاطع. وأنشدنا بعض العلماء الحكماء في معناه:

إنَّ الكريم إذا تقطى وَه * يُخفي القبيح ويُظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تصرَّم حبله * يُخفي الجميل ويُظهر الهتانا

فوصف الكريم في هذا المعنى التخلُّق بخلق الربوبية. ألم تسمع إلى الدعاء الماثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوله: يا من أظهر الجميل، وستر القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر... فكذلك صفات المؤمنين على معاني أخلاق المؤمن الأعلى. وقد كان أبو الدرداء يقول: معاتبة الصديق خير من فقده. وقد روينا عن عليّ عليه السلام: أحبُّ حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما، وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه معناه: لا يكن حبك كلفاً وبغضك تلفاً. يعنى إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشىء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يتلف صاحبك وبهلك. وفي وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وُعدّة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يحبك ما يغبك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل، ولا تصحب الفاجر فتعلم فجوره، ولا تطلعه على سرّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى. وقيل للأحنف بن قيس أى إخوانك أحب إليك؟ فقال من يسد خللى ويستتر زللى ويقبل على. وقال: من حق الصديق أن يُحتمل له ثلاث، أن يجاوز عن ظلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدألة. ويقال: من لم يظلم نفسه للناس، ويتظالم لهم، ويتفاقل عنهم لم يسلم منهم. وكان أسماء بن خازجة الفزارى يقول: ما سمعت أحدا قط، لأنه إنما يسأمنى أحد رجلين، كريم كانت منه زلة وهفوة فأتا، أحق من غفرها وآخذ عليها

بالفضل فيها، أو لثيم فلم أكن أجعل عرضي له غرضاً. ثم تمثل شعراً:

واقفر عهراء الكريم اصطناعه * واعرض عن ذاة اللثيم تكريماً

وأنشدونا لمحمد بن عامر في الإخوان شعراً:

فلا تعجل على أحد بظلم * فإن الظلم مرتعه وخيم

ولا تفضح وإن مكنت غيظاً * على أحد فإن الفضح لوم

ولا تقطع أخاً لك عند لئب * فإن اللئب يفسده الكريم

ولكن داوٍ عودته برقع * كما قد يرقع الفلق القديم

ولا تجزع لرئب الدهر واصبر * فإن الصبر في القبي سليم

وأنشدونا في معناه عن أحمد بن يحيى بن ثعلب، قال أنشدني عبد الله بن شبيب:

إخاء الناس ممتزج * وأكثر فعلهم سميج

فإن بدهته مقطعة * فليس وراهم فـرَج

فقومهم بوصلهم * فإن لم يوصلوا امتوجوا

صروف الدهر دائبة * تقطع نونها المهج

ورويانا عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لاتمار أخاً لك ولا تمازجه، ولا تعده موعداً فتخلفه. وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسطٌ وجوه وحسن خلق. وعن أبي نعيم عن مجاهد في قول الله عز وجل «خذ العفو وأمر بالعرفه» قال خذ من أخلاق الناس ومن أعمالهم ماظهر من غير تحسس. وقد أنشدنا بعض الحكماء في ذلك:

خذ من خليلك ماصفياً * وذو الذي فيه الكدر

فالعسر أقصر من مُعا * تبة الغليل على الفير

ومن عرف فضل الأخوة في الله عز وجل، وعلم درجة المحبة لله تعالى، صبر لأخيه وشكر له وحلم عنه، واحتمل له لينال ما أمّله فيه، ويبلغ ما طلبه به، فإن الصبر يحتاج إليه ليعمل، والشكر لا بد له منه لدوام النعمة. ومن طلب نفيساً خاطر بنفيس، ومن رغب في رغبة بذل لها مرغوباً، والله عز وجل الموفق من يحب لما يحب.

وروينا في حديث عبادة بن الصامت يقول الله عز وجل حقّت محبتي للمتحابين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتبازلين والمتصادقين فيّ. وكان ابن مسعود يقول في قوله عز وجل لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، قال نزلت هذه الآية في المتحابين في الله عز وجل. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، منهم كذا، واثنان تواخيا في الله عز وجل، اجتمعا على ذلك وتفرقا. وكان الفضيل بن عياض وغيره يقول نظراً الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة. فلا تصحّ المحبة في الله عز وجل إلا بمشروط فيها من الرحمة في الاجتماع والخلطة عند الافتراق، بظهور النصيحة واجتناب الغيبة، وتام الوفاء ووجود الأُنس، وفقد الجفاء وارتفاع الوحشة، ووجد الانبساط وزوال الاحتشام. وكان الفضيل يقول إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة. وقال الجنيد ماتواخي اثنان في الله عز وجل، فاستوحش أحدهما من صاحبه، واحتشم منه، إلا لعلّة في أحدهما. ومن ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ماتحاً اثنان في الله عز وجل إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حباً لصاحبه، وفي خبر كان أفضلهما. وفي الخبر الآخر أحب الإخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه. وفي الخبر المشهور لا يذوق العبد طعم الإيمان حتى يحب المرء، لا يحبه إلا لله. وقال ابن عباس في وصيته لمجاهد لاتذكّر أخاك إذا تغيب عنك إلا بمثل ماتح أن تُنكّر به إذا غبت، واعفَ بما تحب أن تُعفى به. وقال يحيى بن معاذ رحمه الله ثلاثٌ عزيزة في وقتنا هذا. ذكّر منها حُسن الإخاء مع الوفا، ويعنى بالوفاء أن يكون له في غيبته ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه مثل ما كان له في شهوده ومعاشرته، ويكون له بعد موته وأهله من بعده كما كان له في حياته، فهذا هو الوفاء، وهو الذي شرّطه النبي صلى الله عليه وسلم للمؤاخاة في قوله اجتمعا على ذلك أو تفرقا. وكذلك قال بعض الأدياء قليل الوفاء بعد الوفاة خيرٌ من كثيره في حال الحياة. وكذلك كان السلف فيما ذكره الحسن وغيره، قالوا كان أحدهم يخلف أخاه في عياله بعد موته أربعين سنة، لا يفقدون إلا وجهه. ويقال إن مسروقاً أدان ديناً ثقيلاً وكان على

أخيه خيشمة دين، قال فذهب مسروق ففضى لِن خيشمة وهو لا يعلم، وذهب خيشمة ففضى لِن مسروق سراً وهو لا يعلم، فمن حقيقة المؤاخاة في الله عز وجل إخلاص المودة له بالغيب والشهادة، واستواء القلب مع اللسان، واعتدال السرّ مع العلانية في الجماعة والخلوة، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوة، وإن اختلف ذلك ففيه مداينة في الأخوة وممازقة في المودة، وذلك نَحَلَ في الدين ووليعة في طريق المؤمنين، ولا يكون ذلك مع حقيقة الإيمان. وقد سأل أبو رزمن العقيلي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشرط له أشياء منها أن يحب غير ذى نسب، لا يحبه إلا لله عز وجل. ومن شرط المحبة في الله تعالى أن لا يكون لرحم يصلها أو نعمة يرثها كما جاء في الأثر عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن رجلاً زار أخاً في الله تعالى في قرية أخرى، فارصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فقال أين تريد؟ قال أردت أخاً لي في هذه القرية. قال هل بينك وبينه رحم تصلها؟ أو له عليك نعمة تربتها؟ قال لا، إلا أنى أحببته في الله تعالى، قال فإني رسول الله إليك أن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه.

وقد اختلف مذهب الصحابة في الأخ يحب أخاه في الله عز وجل ثم ينقلب الآخر عما كان عليه ويتغير، هل يبغضه بعد ذلك أم لا؟ فكان أبو بولس يقول إذا انقلب عما كان عليه وتغير فأبغضه من حيث أحببته. وروينا عن أبي الدرداء أن شاباً غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء، فكان يقدمه على الأشياخ ويقربه فحسدوه، وأن الشاب وقع في كبيرة من الكبائر، فجاؤا إلى أبي الدرداء فحدثوه وقالوا له لو أبعده، فقال سبحان الله لا تترك صاحبنا لشيء من الأشياء. وروينا عن بعض التابعين وعن الصحابة في مثل ذلك وقد قيل له فيه، فقال إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى. وكذلك قال الله عز وجل لنبيه في عشيرته «فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون»، ولم يقل قل إني برئ منكم، للحمية النسب. وقد قيل للصدقة لَحْمَة كَلْحَمَة النسب. وقيل لمكيم بن مرة أياً أحب إليك، أخوك أو صديقك؟ فقال إنما أحب أخى إذا كان صديقاً. وكان الحسن يقول كم من أخ لك لم تلده أمك. ولذلك قيل القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة. وفي حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما شتم القوم الرجل الذى أتى فاحشة، فقال مَهْ، وَزَبْرَهُمْ، لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك. وفي أثر عن بعض العلماء في مثل زلات الإخوان، قال ودَّ الشيطان أن يلقى على أخيك مثل هذا حتى تقطعوه وتهجروه. وقد كان أبو الدرداء يقول إذا تغير أخوك وحال عما كان، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يَفُوج مرة ويستقيم أخرى. وكان يقول داو أخاك ولا تطع فيه حاسداً

فتكون مثله. وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب، فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً. وقال أيضا لا تحدثوا الناس بزلة العالم فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها. وفي الخبر اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه، وانتظروا فينته. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم شِراء عباد الله المشائون بالنعمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء الغيب. وقال سعيد بن المسيب إنى لأكره أن أفرق بين المتألفين، وقال مرة بين المتحابين.

ومن أفضل فضيلة الصب في الله تعالى أنه جعل علما لوجود الإيمان، وقُرِن بحب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما في الخبر لا يؤمن عبدى حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ثم جاء مثله- لا يجد العبد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لله عز وجل. وكان محمد بن واسع يقول مابقي في الدنيا شيء الله إلا ثلاث : الصلاة في جماعة، والتهدج من الليل، ولقاء الإخوان. وكان بعضهم يقول لقاء الإخوان مسلاة لله ومذهب للأحزان. وكان الحسن يقول إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا، لأن أهلينا ينكرونا الدنيا ، وإخواننا ينكرونا الآخرة. وقال أحدهم لأن الأهل والولد من الدنيا، والإخوان في الله عز وجل من آلة الآخرة. وعن عطاء قال، كان الحسن يقول تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودهم، وإن كانوا مشاغيل فاعينهم، وإن نسوا فنكروهم. وكان الشعبي يقول في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه، ذلك معرفة التوكل. وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله، فقال يارسول الله أحببت رجلاً فانا اطلبه ولا أراه، فقال ياأبا عبد الله: إذا أحببت أحداً فسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإن كان مريضاً عدته، وإن كان مشغولاً أعنته . وكان سعيد بن العاص يقول لجلسي على ثلاث، إذا دنا رحبت به، وإذا حدثت أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له. وقال أكرم بن صيفي لبنيه : يا بني- تقاربوا في المودة ولا تتكلموا على القرابة. وقد قيل لأبي حازم ما القرابة؟ قال المودة. وكان عبد الله بن الحسن البصري يصرف إخوان الحسن إذا جاوه لطلو لبثهم عنده ، ولشدة شغفه بهم ، فيقول لهم لا تملوا الشيخ؟ فكان الحسن إذا علم ذلك يقول دعهم يا كع فإنهم أحب إلي منكم . هؤلاء يحبوني لله عز وجل ، وأنتم تريدوني للدنيا . وقال أبو معاوية الأسود إخواني كلهم خير مني ، قيل وكيف ذاك؟ قال كلهم يرى الفضل لي عليه ، ومن فضلني على نفسي فهو خير مني . وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله . ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه .

وقد روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أنه قال لرجل كره له صُعبَة رجل رَهيق:

- لا تصحب أخا الجهل * ولا تصابك وإياه
فكم من جاهلٍ أردى * حلِيماً حين أخاه
يُقاس المرء بالمرء * إذا ما مو ما شأه
وللشيء من الشيء * مقاييس وأشباه
والقلب على القلب * دليلٌ حين يلقاه

وأنشد محمد بن جامع الفقيه شعراً:

- تذلل لمن إنْ تذللْتَ له * يرى ذاك للفضل لا لله
وجانبُ صداقةٍ من لا يزال * على الأصدقاء يرى الفضل له
وأنشدنا لبعض الأدباء:

- كم من صديقٍ مرَّفته بصديق * صار حظي من الصديق العتيق
ووفيق رأيتَه في طريق * صار عندي محض الصديق الحقيق

وروي عن الحسن بن عليّ عليهما السلام في وصف الأخ كلاماً رجزاً جامعاً مختصراً:

- إن أخاك الحق من كان معك * ومن يضر نفسه لينفوسه
ومن إذا ريب الزمان صدعك * شتت شمل نفسه ليجمعك

ولا تصحّ مؤاخاة مبتدع في الله تعالى، ولا محبة فاسق يُصحب على فسوقه، ولا محبة فقير أحبّ غنيا لأجل دنياه وما يناله من عاجل مهناه. وقد تصحّ المحبة بين الغني والفقير، ولا توجد الأخوة إن لم يقم الغني بحقوق أخيه، وإذا لم يؤثره أخوه بما يجب أن يؤثره به فلم يفتضه. وقد تصحّ الأخوة بين العالم والجاهل، وبين الصالح والطالح، لأجل التدين من أحدهما والتقربة إلى الله عز وجل، ويكون من الأعلى منهما النيات تكون له فيها، تحسن

خلقه أو لجميل معاملته، أو لمعانٍ محمودة تكون فيه، أو لتواضع العالم والصالح في نفسه
فيراها في كل حال فوقه، أو لأجل الستر عليه لئلا يلحقه النقص والشين من الغير. فهذه طرقات
الإخوان فيها حُسن نيات. وينبغي على ذلك أن تعلمه ما جهل، فيعينه بعلمه كما يعينه بماله،
فإن فقر الجهل أشد من فقر المال، وإن الحاجة إلى العلم ليست بدون الحاجة إلى المال. وكان
الفضيل يقول إنما سمي الصديق، لتصدقته والرفيق لترفقته. فإن كنت أغنى منه فارفقه
بمالك، وإن كنت أعلم منه فارفقه بعلمك. وينبغي أن ينصح له فيما بينه وبينه، ولا يوبخه بين
الملا، ولا يطلع على غيبه أحداً، فقد إن ناصح المؤمنين في آذانهم. وقال جعفر بن برقان،
قال لي ميمون بن مهران: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول
له في وجهه ما يكره.. فإن كان أخوه الذي نصح له صادقاً في حاله، أحبته على نصحه، فإن
لم يحبه وكره ذلك منه، دلّ على كذب الحال. قال الله سبحانه وتعالى في وصف الكاذبين
«ولكن لا تحبون الناصحين». وقد كان بعض الصالحين يقول أحبّ الناس إليّ من أهدى
عيوبى. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول ويأمر الإخوان بذلك - رحم الله امرأ
أهدى إلى أخيه عيوب نفسه. ولكن قد قيل لمسعر بن كدام تحب من يخبرك بعيوبك، فقال
إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم، وإن قرعنى فى الملا فلا.

ومن أخلاق السلف قال كان لرجل إذا كره من أخيه خلُقاً عاتبه فيما بينه وبينه، أو
كاتبه فى صحيفة، بهذا لعمري فرق بين النصيحة والفضيحة، فما كان فى السرّ فهو
نصيحة، وما كان على العلانية فهو فضيحة، وقلما تصح فيه النية لوجه الله تعالى لأن فيه
شناعة. وكذلك الفرق بين العتاب والتوبيخ، فالعتاب ما كان فى خلوة، والتوبيخ لا يكون إلا
فى جماعة. وكذلك الفرق بين المداراة والمداهنة، فالمداراة ما أردت به وجه الله تعالى وطريق
الأخرة من دفع عن دين، وقصدت به سلامة أخيك من الإثم، وصلاح قلبه لله تبارك وتعالى،
والمداهنة ما اجتلبت به دنيا وأردت به حظ نفسك. وكذلك الفرق بين اللمظة والحسد، أن
اللمظة أن تحب لنفسك ما رأيت من أخيك، ولا تحب زواله عنه بل تبقيته له وإتمامه عليه،
والحسد ما أردت أن يكون ذلك منه لك، وأحببت زواله عنه، وكرهت تبقيته عليه، فهذا مكروه.
فإن سعت فى ذلك بقول أو فعل فهو البغى زيادة على الحسد، وهو من كبائر المعاصى .
وكذلك الفرق بين الفراسة وسوء الظن، أن الفراسة ما توسمت من أخيك بدليل يظهر لك،

أو شاهدٍ يبدو منه، أو علامة تشهدا فيها، فتتفرس ذلك فيه ولا تنطق به إن كان سواً، ولا تُظهره ولا تحكم عليه ولا تقطع به فتائم، وسوء الظن ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حقد في نفسك عليه، أو لسوء نيةٍ أو خبثٍ حالٍ فيك تعرفها من نفسك فتحمل حال أخيك عليها وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظن والإثم، وهو غيبة القلب، وذلك محرم لقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه، وأن تظن به ظنَّ السوء. وقوله عليه السلام إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث. فهذه خمس معانٍ وأهداها بينها فرقٌ عند العلماء، فاعرف ذلك.

وينبغي أن ينصر أخاه ويعينه بماله ولسانه وقلبه وأفعاله، فإن النصرة في الله تعالى تكون بهذه المعانى الأربع: بالنفس إن احتاج إليك في الأفعال، وباللسان إن ظلم في المقال، وبالمواساة إن احتاج إلى المال، وأقل ذلك بالقلب أن يساعده في الهم والكرب في اعتقاد السلامة فيه وجميل النية له. وعليه أن يحفظ غيبه، وأن يحسن الشاء عليه، وينشر فضله ويطوى زله، ويقبل علله. ويقال ما من الناس إلا له محاسن ومساوي، فمن ظهرت محاسنه فغلبت مساويه فهو المؤمن المقصد. فالأخ الشفيق الكريم يذكر أحسن ما يعلم في أخيه، والمنافق اللثيم يذكر أسوأ ما يعلم فيه. ومن هذا جاء في الخبر أستعيز بالله من جار السوء الذي إن رأى خيراً ستره، وإن رأى شراً أظهره. وهذا المعنى هو سبب قول النبي صلى الله عليه وسلم إن من البيان سحراً، إذ لكل حيث يروى آخره سبباً، يكون أوله خرج الحديث عليه، وهو أن رجلاً أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان الغد ذمّه وعابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت بالأمس تثنى عليه واليوم تذمّه، فقال والله لقد صدقتُ عليه بالأمس وما كذبتُ عليه اليوم، إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما أعلم فيه، وأغضبني اليوم فقلت أسوأ ما أعلم فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: إن من البيان سحراً... كأنه كره ذلك أن شبهه بالسحر لأن السحر حرام، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الخبر الآخر: البذاء والبيان شعبتان من النفاق. وفي الحديث الآخر: إن الله تعالى كره لكم البيان... كل البيان. وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله في وصف العدالة قولاً استحسنه العلماء، قال: ما أحدٌ من المسلمين يطيع الله عز وجل حتى لا يعصيه، ولا أحد يعصى الله عز وجل حتى لا يطيعه، فمن كانت طاعاته أكثر من معاصيه فهو العدل. وقال أيضاً قولاً فصلاً في التوسط بين الانقباض والانبساط. قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين الانقباض والانبساط.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالصبر والرحمة في قوله عز وجل «وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة» ، ونعتهم بالذلة في قوله تعالى «اللذلة على المؤمنين أصرّة على الكافرين» ، وقال تعالى «رحماء بينهم» . وهذا كله داخل في الاهتمام به وهو حقيقة صدقه في الصداقة له، كما قال ولا صديق حميم ، أى هميم من الاهتمام به. وقد قال عيسى عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيت أخاك نائما فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه، فقال: بل تكشفون عورته! قالوا سبحان الله من يفعل هذا؟ فقال ، أحلكم يسمع فى أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها... وهذا مخرجه من الحسد الكائن فى النفس والغل المستكن فى القلب: أن يزيد الرجل على الشيء مما يسمع أو يتبعه بعثله، فيظهر هذا غلة. وهذا الذى استماذ منه المؤمنون فى قولهم «ولا تجعل فى قلوبنا غلا» الآية. وينبى أن لا يخالفه فى شيء ولا يعترض عليه فى مراد. قال بعض العلماء إذا قال الأخ لأخيه قم بنا، فقال إلى أين فلا تصحبه. وقال الآخر إذا قال اعطنى من مالك، فقال كم تريد، أو ماذا تصنع به، لم يقم بحق الإخاء. قال أبو سليمان الداراني كان لى أخ بالعراق، فكنت أجيئه فى النواصب فأقول اعطنى من مالك شيئا، فكان يلقي إلى كيسه فأخذ منه ما أريد، فجنته ذات يوم فقلت أحتاج إلى شيء، فقال كم تريد، فخرجت حلوة إخاء من قلبى.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تعاسدوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحرمه، ولا يخذله. بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. وفى حديث على عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو من كملت مروته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته. وفى حديث أبى أسامة الباهلى خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمازى ففضب، ثم قال لروا المرء لقلته خيره، لروا المرء فإن نفعه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان. وقال بعض السلف من لآهى الإخوان وماراهم قلت ونهبت كرامته. وقال عهد الله بن الحسن إياك ومعاداة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حلیم أر مفاجأة لثيم. وقال بعض الحكماء ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيدك لطف الحقد إلا وحشة منه. وقد روينا فى الحقد على الإخوان لفظة شديدة وهو ماحدثونا عن عهد الرحمن بن جبير عن أبيه، قال كنت باليمن وكان لى جار يهودى يخبرنى عن التوراة، فقدم علينا يهودى من سقر، فقلت إن الله تبارك

وتعالى قد بعث فينا نبياً فدعا إلى الإسلام فاسلمنا، وقد نزل علينا مصدقاً للتوراة، فقال اليهودى صدقت ، ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاكم به. إننا نجد نعمته ونعت أمته، أنه لا يحل لامرئ يعلم منهم أن يخرج من عبّة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه المسلم. وقال بعض السلف أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال الحسن لا تشتري عداوة رجل بموثة ألف رجل. وقال عمر بن عبد العزيز إياك ومن موّته على قدر حاجته إليك، فإذا قضيت حاجته انقضت موّته.

ومن أخلاق السلف لم يكن أحد يقول في رحّله هذا لى وهذا لك، بل كان كل من احتاج إلى شيء استعمله عن غير مؤامرة، وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بهذا في قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون» ، معنى أمرهم أى أمورهم، لكر جماعها كالشيء الواحد بينهم، شورى أى مشاع غير مقسوم ولا يستبدّ به واحدهم، ومما رزقناهم ينفقون أى كانوا يخطأ في الأموال، لا يميز بعضهم رحّله من بعض، أى شركاء. وجاء عبّة الغلام إلى منزل رجل كان قد آخاه، فقال احتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال خذا الفين، فأعرض عنه وقال أثرت الدنيا على الله عز وجل. أما استحييت أن تدعى الأخوة في الله عز وجل وتقول هذا وجاء فتح الموصلى إلى منزل أخ له وكان غائباً ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه، ففتحه فأخذ من كيسه حاجته، فذهبت الجارية إلى مولاها فأعلمته، فقال إن كنت صادقة فانت حرة لوجه الله تعالى سروراً بما فعل. وروى أن ابن أبي شبرمة قضى لبعض إخوانه حاجة كبيرة، فجاه الرجل بهدية جليّة، فقال ما هذا، فقال ما أسديت لى، فقال خذ مالك عافاك الله. إذا سألت أخاك حاجة فإنما يجهد نفسه في قضائها. ثم توضع للصلاة وكبّر عليه أربع تكبيرات وعدّه في الموتى... وعلى ذلك قال بعضهم إذا استقضيت أخاك الحاجة فلم يقضها الله، فذكره ثانية فلعله يكون قد نسى، فإن لم يقضها فعاوده ثالثة فقد يكون شغل عنها بعدر، فإن لم يقضها فكبّر عليه واقرأ عليه هذه الآية «والموتى يبعثهم الله». وقال يميمون بن مهران من رضى من الإخوان بترك الأفضال، فليواخ أهل القبور. وجاء رجل الى أبى هريرة ، فقال إنى أريد أن أواخيك فى الله عز وجل، فقال أتدرى ما حق الإخاء؟ قال عرفنى. قال لا تكون بدرهمك ودينارك أحق منى. قال لم أبلغ هذه المنزلة بعد. قال فانهب عنى. وقال على بن الحسن رضى الله عنهما لرجل: هل يدخلك أحدكم يده فى كمّ أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد من غير إذن؟ قال لا. قال فلستم بإخوانا وقيل إن إبراهيم بن

أهم أعطى مرة حماراً كان لرفيقه بغير إذنه لرجل رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت فلم يكره ذلك. وقد روى عن ابن مسعود لا تسأل امرأ عن وده إياك، ولكن انظر ما فى قلبك فإن فى قلبه لك مثل ذلك.

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق أهل البيت، قال ثلاثة من المروعة فى الحضر: تلاوة كتاب الله عز وجل، وعمارة مساجده، واتخاذ الإخوان فى الله تعالى. فمن فضل المؤاخاة فى الله تعالى أنه قرنها بتلاوة كتابه وعمارة بيوته. وقد جعل الاختلاف إلى المسجد سبب اجتلاب الإخاء. وفى حديث ابن عباس والحسن بن عليّ من أذمن الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى خمس خصال: أخاً مستفاداً فى الله عز وجل. وقال أبو عبيدة وقد أنشد هذا البيت:

وجدت مصيبات الزمان جميعها * سوى فرقة الإخوان هيئة الخطب

فقال لقد عهدت اقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما تخيل لى أن حسرتهم نهدت من قلبى. وقال بعضهم ما هدنى شيء كما هدنى موت الأقران. ويقال إذا مات صديق الرجل فقد فقد عضواً من أعضائه. وأنشدونا عن العتيبي:

ولقد يلوت الناس ثم خبرتهم * ووصلت ما قطعوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تلرب قاطعاً * وإذا السموة اقرب الأنساب

ويلغنى ان أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه، وقال إنى قد اعتلت بالهوى فإن شئت أن لا تعقد على محبتي لله تعالى فافعل، فقال ما كنت لأجل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبداً، قال ثم عقد أخوه بينه وبين الله عز وجل أن لا يأكل ولا يشرب، حتى يعافى الله عز وجل أخاه من هواه، فطوى أربعين يوماً فى كلها يسأله عن هواه كيف أنت منه، فكان يقول القلب مقيم على حاله. وما زال أخوه الآخر ينحلّ ويسقم من القم عليه، ومن تركه الطعام والشراب. قال فآزال الله الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين، فأخبره بذلك فاكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزلاً وضراً. وبمعناه حدثت عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه التقى الآ تقطعه وتهجره؟ فقال هو أحوج ماكان إلىّ فى هذا الوقت لما وقع فى عشرته، أن أخذ بيده وأتطّف له فى المعاتبه، وأدعوه بالعود إلى ماكان عليه. وفيما

رويناه من الإسرائيليات أنّ أخوين عابدين في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصّرَ لحمًا بدرهم، فبصر ببغى عند اللحام فهويها فواقمها، ثم أقام عندها ثلاثاً، واستحى أن يرجع إلى أخيه من جنابته، قال فافتقده أخوه واهتم بشأنه، فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دلّ عليه، فدخل عليه وهو جالس مع البغى فاعتنقه، وجعل يقلّبه ويلزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه منه، فقال قم يا أخى فقد علمتُ بشأنك وقصتك، وماكنت أعزّ على وأحبّ منك في يومك هذا، ولا في ساعتك هذه. فلماً رأى ذلك لا يسقطه عنده، قام فانصرف معه. فهذا من أحسن النيات، وهو طريق العارفين من نوى الآداب والروايات، فإن أحبّ هذا الأخ أن يؤثر أخاه بما أثره به، ولا يقتضيه حقّ إخوانه، فحسن، وقد فعل ذلك عبد الرحمن بن عوف لما أثره سعد بن الربيع بالمال والنفس، فقال بارك الله لك فيهما، فآثره بما به أثره، فكانه استأنف هبته له، لأنه قد كان ملكه إياه، لسخاوة نفسه وحقيقة زهده وصدق مؤدته، فكانت المساواة لسعد، والإيثار لعبد الرحمن فزاد عليه، وهذا من فضل المهاجرين على الأنصار، إذ كانت المساواة دون الإيثار. وقد كان مضر بن عيسى وسليمان يقولان من أحبّ رجلاً، ثم قصر في حقه فهو كاذب في حبه. وكان أبو سليمان الداراني يقول: هو صادق في حبه، مفترط في حقه. ثم قال: لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقلتها له. وقال: إنى لألقم الأخ من إخواني اللقمة فأجد طعمها في حلقى!

واعلم أن إطعام الطعام والإنفاق على الإخوان، مضاعف على الصدقات وعلى العطاء للأجانب، بمنزلة تضعيف الثواب في الأهل والقربات. وروى عن علي عليه السلام لعشرون درهما أعطياها أخى في الله عز وجل أحبّ إلىّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضاً لأن أصنع من طعام، وأجمع عليه إخواني في الله عز وجل، أحبّ إلىّ من أن أعتق رقبة. وأوصى بعض الحكماء ابنه، فقال يا بني ادخل بين الأعداء ولا تدخلن بين الأصدقاء، قال وكيف ذلك؟ قال الدخول بين الأعداء يكسب الصداقة، والدخول بين الأصدقاء يورث العداوة.

ولا ينبغي للأخ أن يخون أخاه في غيبه بما يكرهه، إن كان ذلك في شيء مباح إذا كرهه، ولا ينكر عليه ما لا يقوم في علمه إذا فعله، إن كان أخوه أعلم منه، أو كان له وجه يخرج عليه. ولا ينبغي أن يكذبه في أمره، ولا يفشيه له سرّاً، ولا يعرضه لغيبة ولا نعيمة، ولا

يُحوجه إلى مداراة، ولا يُلجئة إلى اعتذار، ولا يتكَلَّفَن له ما يشق عليه، أو مالا يحبه هو منه. وقال العباس لابنه عهد الله إنى أرى هذا الرجل، يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يُقدِّمك على الأشياخ ويقرِّبكَ دونهم، فاحفظ عنى ثلاثاً، لا تفتشني له سرّاً، ولا تفتابنّ عنده أحداً، ولا يجربنّ عليك كذبة. وفي بعض الروايات ولا تعصينّ له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانة. قال فقلت للشعبي وقد رواه، كل كلمةٍ خيرٌ من ألف. قال كل كلمة خير من عشرة آلاف - وأفشى بعضهم إلى أخيه سرّاً ثم قال له حفظت؟ قال بل نسيت. وقيل لبعض الأدباء كيف حفظك السرّ؟ قال أنا قبره. وقيل لآخر كيف تحفظ السرّ؟ فقال أجحد المخبر وأحلف للمستخبر.

ومن أحسن ما سمعت في حفظ السرّ، ما حدّثني بعض أشياخنا عن إخوانٍ له دخلوا على عهد الله بن المعتز، فاستنشدوه شيئاً من شعره في حفظ السرّ فانشدهم على البديهة:

ومستودعي سرّاً تهوات كتّمه * فاودعته صدرى فصار له قهراً

قال فخرجنا من عنده فاستقبلنا محمد بن داود الأصهباني فسألنا من أين جئنا، فأخبرنا بما أنشدنا ابن المعتز في السرّ، فاستوقفنا ثم أطرق ملياً ثم قال اسمعوا قولى:

وما السرّ في صدرى كئافٍ بقبرة * لأنى أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكننى أنساه حتى كاننى * بما كان منه لم أحط ساعةً خبراً لم
ولو جاز كتّم السرّ بينى وبينه * عن السرّ والأحشأ لم يعلم السرّاً

وقال الثوري إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فاغضبه ثم دسّ عليه من يسأله عنك، فإن قال خيراً فاصحبه . وقال غيره لا تؤاخين أحداً حتى تبلوه وتفتشى إليه سرّاً ، ثم اجفّه واستفضّبه وانظر فإن أفساه عليك فاجتنبه . وقيل لأبي يزيد من أصحاب من الناس؟ قال من يعلم منك ما يعلم الله عز وجل، ويستر عليك ما يستر الله تعالى. وقيل لبعض العلماء من يصحب من الناس؟ قال من يرفع عنك ثقل التكلف ، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وقد كان جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول أثقل إخوانى على من يتكلف لى وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى. يريدون بهذا كله أنّ من لم يكن على هذه الأوصاف دخل عليه التصنّع والتزيّن، فأخرجاه إلى الرياء والتكلف، فذهبت بركة الصُحبة، وبطلت

منفعة الأخوة. وقال بعض الصوفية لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده بيرة ولا تنقص بإثم، ومن يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر إليك إذا أسأت ، ويحمل عنك مؤنة نفسه ويكفيك مؤنة نفسه، وهذه من أعز الأوصاف فى هذا الوقت كما قال رجل للجنييد قد عزّ فى هذا الزمان أخ فى الله تعالى ، قال فسكت عنه، ثم عاد ذلك فقال له الجنييد اذا أردت أخاف فى الله عز وجل يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإن أردت أخا فى الله تتحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندى جماعة أدلك عليهم إن أحببت، فهذا لعمري يكون محبا لنفسه إذا اقتضى هذا من أخيه ، لا محبا لأخ فى الله تعالى ، وليس الإخاء كفاً الأذى لأن هذا واجب ولكن الإخاء الصبر على الأذى .

وقال بعض العلماء لا تصحب إلا أحدر رجلين ، رجلاً تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعك، أو رجلاً تعلمه شيئاً من دينه فيقبل منك، والثالث اهرب منه ، وقال ابن أبي الهوارى قال لى استاذى أبو سليمان يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين ، رجل ترتفق به فى دنياك ، أو رجل تزيد معه وتتفجع به فى آخرتك... والاشتغال بغير هذين حُوق كبير، وكان المأمون يقول: الإخوان ثلاثة ، أحدهم مثله مثل الغذاء لا يُستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يُحتاج إليه فى وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يُحتاج إليه... فالعبد مبتهى بهذا الثالث، وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع عنه ، والأول نعمة من الله سبحانه وتعالى على العبد، فيه ألفة وأنس، ومعه غنيمة ونفع. وكان أبو نر يقول: الوحدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة . وقال بشر بن الحارث: يكون للرجل ثلاثة إخوان ، أخ لأخرته، وأخ لنديا، وأخ يانس به ... فأخبر أن أخ المؤمنة قد لا يكون متقرباً عابداً. وأن الأنس مخصوص، يقال لا يوجد إلا فى كريم.

واعلم أن الأنس لا يوجد فى كل عالم، ولا فى كل عاقل، ولا فى كل عابد زاهد. ويحتاج الأنس إلى وجود معان تكون فى الولى، فإذا اجتمعت فيه كَمَل فيه الأنس وارتفعت عنه الوحشة والحشمة، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس، ومن لم تكمل فيه وجدّ فيه بعض الأنس، وإذا حصل الأنس ففيه الروح من الكروب والاستراحة من الغمّ والسكون وطمأنينة القلب ، فكذلك عزّ من يوجد فيه الأنس لعزّة خصاله وهى سبع: علم، وعقل، وأدب، وحسن خلق، وسخاء نفس، وسلامة قلب، وتواضع، فإن فقدَ بعضها لم يجد خِلاً يانس بكماله، من قبل أن

أضادها وحشة كلها، لأن الجاهل لا أنس فيه، والأحمق لا أنس به، والبخيل سيئ الخلق لا أنس عنده، والخيث والمتكبر لا أنس معه، فاعرف هذا.

وروينا عن الأصمعي أنه ذكر عن بعض الحكماء قال: عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، وعاملوا العامة بالرغبة والرغبة، وسوسوا السفلة بالمخافة. ومثل جملة الناس كمثّل جملة الشجر، منهم من له ظل وليس فيه ثمر، وهذا الذي فيه نفع من الدنيا ولا ثمرة له في العقبى، ويحتاج إليه في وقت، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للأخرة ولا يصلح للدنيا، ومنهم من فيه ظل وثمر فهذا الذي يصلح للدين والدنيا، وهو أعزها، ومنهم من لا ظل له ولا ثمر، وهذا هو الذي لا يحتاج إليه، فمثل في الشجر مثل شجر القضا، وهو شوك البرية التي تسميه العامة أم غيلان، تمرق الشياب، لا طعام فيه ولا شراب، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع، ويكثر ولا يدفع، مظه كما قال الله تبارك وتعالى يُدعون لمن همّوه أقرب من نفعه ليهتس المولى ولتهس العشير، مثله في الدواب مثل الفارة والعقرب، وقد قيل في وصفهم:

الناس شتى إذا ما أنت لقتهم * لا يستويون كما لا يستوي الشجر

ذا ربّه ظلّ وهذا عنده ثمر * وذلك ليس له ظل ولا ثمر

وقد أنشدنا في مثل وصف هذا لبعض الأبناء

إذا كنت لا تُرجى لدفع مهمة * ولم تك يوم الحشر ممن يُشفع

ولا أنت ذا مال يجود بماله * فعود جلالٍ من إخائك أنفع

وقال بعض السلف إذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته فكثير. وحدثنا محمد بن القاسم القرشي عن الربيع بن سليمان عن الإمام الشافعي رحمه الله، أنه أخى رجلاً ببغداد، ثم أن أخاه ولي السيبين فتغير للشافعي كما كان يعهده منه، فكتب إليه الشافعي رضى الله عنه هذه الأبيات :

إلهب فونك من ودادي طالق * منى وليس طلاق ذات الرين

فإن ارموت فإنها تطليقت * ويدوم ونك لى على فنتين

وإذا امتنعت شفعتها بمثالها * فتكون تطليقتين فى حينين

فلذا الثلاث أتته منى بعاً * لم تفر منك ولاية السيبين

فذكر هذا الكلام لبعض الفقهاء فاستحسنه، وقال هذا الطلاق فقهي إلا أنه طلق قبل النكاح. وقد كان الشافعي عليه السلام أخى محمد بن عبد الحكم المصري، وكان يحبه ويقربه ويقول ما يقيمنى بمصر غيره، واعتل محمد فعاده الشافعي، فحدثني القرشي عن الربيع، قال سمعت الشافعي ينشد وقد عاد محمداً :

مريض العيب فعدته * فمريضة من حذى عليه

وأتى العيب يهودنى * فبرأت من نظرى إليه

وما شك أهل مصر أن الشافعي يفوض أمر حلقة إليه، وأنه يستخلفه بعد موته ويأمر الناس بالاحضور عنده، حتى سئل عن ذلك في علقته، فقيل له يا أبا عبد الله إلى من نجلس بعدك، ومن يكون صاحب الحلقة، وهم يظنون أنه يشير إلى محمد، فاستشرف لذلك محمد وتناول لها، وكان جالسا عند رأسه، فقال سبحان الله، أيشك في هذا؟ أبو يعقوب البويطي. فانكسر لها محمد ووجد في نفسه، ومال أصحابه إلى أبي يعقوب البويطي. وقد كان محمد حمل علم الشافعي ومذهبه وفارق مذهب مالك، إلا أن البويطي كان أزهد وأورع، فحمل الشافعي نصحه للدين والنصيحة للمسلمين، ولم يداهن في ذلك، بأن وجه الأمر إلى أبي يعقوب وآثره، لأنه كان أولى، فلما قبض الشافعي رضى الله عنه انتقل محمد بن عبد الحكم من مذهبه، وفارق أصحابه، ورجع إلى مذهب مالك، وروى كتب أبيه عن مالك وتفقه فيها، فهو اليوم من كبار أصحاب مالك رضى الله عنه. وأخمل البويطي رحمه الله نفسه، واعتزل عن الناس بالبويطة من سواد مصر، وصنف كتاب الأم الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما هو جمع البويطي، لم يذكر نفسه فيه وأخرجه إلى الربيع، فزاد فيه وأظهره وسمعه منه. وقد كان البويطي حمل في المحلة، ورفع من مصر إلى السلطان، وحبس في شأن القرآن، فحدثنا عن الربيع، قال : كتب إلي البويطي من السجن يحثني على المجالس، ويأمرني بالمواظبة على العلم والرفق بالمتعلمين والإقبال عليهم، وأن أتواضع لهم . وقال كثيراً ما كنت أسمع الشافعي رضى الله عنه يقول :

أهين لهم نفسى لكى يكرمونها * ولن تكرم النفس التى لا تهينها

ومن حق الأخوة في الله عز وجل ما نُقل إلينا من سيرة السلف، قال كان الرجل يجيء إلى منزل أخيه من حيث لا يعلم، فيقول لأهله هل عندكم دقيق؟ الكم زيت؟ تحتاجون إلى كذا؟ فإن قالوا ليس عندنا اشترى لهم مصالحهم. قال ولم يكن الأخ يفرق بين عياله وعيال أخيه يقاسمهم المؤنة، قال ويلقى أخاه فلا يعلمه بشيء من ذلك. وكان أبو الدرداء يقول إنني لأدعو لأربعين من إخواني في سجودي، أسميهم بأسمائهم. وقد جاء في الحديث دعاء الأخ لأخيه بالغيب لا يرد. والحديث المشهور يستجاب للمرء في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه. فمن واجب الأخوة تخصيصه وإفراجه بالدعاء والاستغفار له في الغيب، فلو لم يكن من بركة الأخوة إلا هذا كان كثير. وكان محمد بن يوسف الأصبهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك، وهو منفرد بحسرتك، مهتم بما قدمت، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى. فقد أشبه الأخ الصالح الملائكة، لأنه جاء في الخبر إذا مات العبد قال الناس ما خلف؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ يفرحون بما قدم من خير ويشفقون عليه، وقال بعض العلماء لو لم يكن في اتخاذ الإخوان إلا أن أحدهم يبلغه موت أخيه فيترحم عليه ويدعو له، فلعله يفر له بحسن نيته له. ويقال من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كأنه شهد جنازته وصلى عليه. ويقال الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء. فقد كان الإخوان يوصون إخوانهم بعدهم بدوام الدعاء لهم ويرغبون في ذلك، لحسن يقينهم وصدق نيّاتهم. وإن أعظم الحسرة من خرج من الدنيا ولم يواخ أخاً في الله عز وجل، فيدرك بذلك فضائل المواخاة، وينال به منازل المحبين عند الله تعالى. ومن أشد الناس وحشة في الدنيا من لم يكن له خليل يانس به، وصديق صدق يسكن إليه، كما قال علي عليه السلام: وغريب من لم يكن له حبيب، ولا يوحشك من صديق سوء ظن. وأنشد بعض الشيوخ لبعضهم:

وليس غريباً من تنامت دياره * ولكن من يجفئ فذاك غريب

ومن كان ذا عهد قديم وذا وفا * فلو جاوز السدين فهو قريب

وكان بعضهم يقول: أنا بموتة من غاب عني من بعض إخواني أوثق مني بموتة من يغدو على ويروح في كل يوم مرتين. وقال محمد بن داود قُرب القلوب على بعد المزار خير من قرب الديار من الديار. وليتق أن يعاشر أخاه بخمس خصال فليست من الأدب ولا المروعة: أولها أن لا يكزمه بما يكره مما يشق عليه، والثانية أن لا يسمع فيه بلاغة، ولا يصدق عليه مقالة،

والثالثة أن لا يكتر مسالته من أين تجيء وإلى أين تذهب، وأن لا يتجسس عليه ولا يتحسس عنه، والفرق بينهما أن التجسس يكون فى قفو الأثار، والتحسس يكون فى تطلّع الأخبار ، فقد روينا كراهة هذه الخمس فى سيرة السلف.

واعلم أن للناس فى التعارف سبع مقامات، بعضها فوق بعض، فأول ذلك المعرفة عن الرؤية أو السمع فقط، فهذا حرمة الإسلام وحق العامة؛ ثم المجاورة وله حق الجوار، وهو ثانى حقوق الإسلام وهذا هو الجار الجنب؛ ثم المرافقة فى طريق أو سفر، وهذا هو الصاحب بالجنب فى أحد الوجهين من الآية، فهذا ثلاثة حقوق، لأنه قد جمع حرمة الإسلام، وحرمة الجوار، وزاد عليها بانه ابن سبيل؛ ثم الصُّحبة وهى الملازمة والاتباع، فهذا فوق ذلك؛ ثم الصداقة وهى حقيقة الأخوة، ومعها تكون المعاشرة، وهو اسم تكون معه المخالطة، وتوجد فيه المؤانسة، وهو يحكم بالمزاورة والمبايعة والمؤاكلة، وهذا جملة العشرة، فالمعاشرة مأخوذة من العشير هو الخليط المقارب ، ولذلك سعى الزوج عشييراً فى قول النبى صلى الله عليه وسلم ويكفّرُن العشير. وقد قال الله عز وجل فى تسمية المعاشر وفى قربه "لهنّس المولى ولهتس العشير" يعنى ابن العم المختلط به، فقيل منه معاشرة على زنة مفاعلة، لأنه شئ يقع بين اثنين لا محالة كان كل واحد قد فعل مثله، أى يفعل هذا مثل ما يفعل هذا، مثل المضاربة والمقاتلة والمشاتمة، إذا فعل كل واحد بصاحبه كفعله به؛ ثم الأخوة فوق الصداقة وهذا لا يكاد يكون إلا بين النظراء فى الحال والمتقاربين فى الحُسن والمعانى، بأن يوجد فى أحدهما من القلب والهمة والعلم والخلق ما يوجد فى الآخر وإن تفاوتتا، كما قال تبارك وتعالى "إنّ المهذّبين كانوا إخوان الشياطين"، وليسوا من جنسهم ولا على وصفهم فى الخلقة، ولكن لما تشابهت قلوبهم وأحوالهم آخى بينهم، فهذه أخوة الحال، وهى حقيقة الصداقة؛ ثم المحبة وهى خاصية الأخوة، وهذا يجعله الله تبارك وتعالى من الألفة، ويوجده من الأنس فى القلوب، يتولاه بصنعه ولا يوليه غيره، وهذا ارتياح القلوب ، وانشراح الصدور ووجد السرور، وفقد الوحشة، وزوال الحشمة؛ ثم الغليل وهذا فوق الحبيب، ولا يكون هذا إلا فى عاقلين عاملين عارفين، على معيار واحد، وطريق واحد ، وهذا أعز موجود وأغرب معهود. والغلة مأخوذة من تخلل الأسرار، ومعها تكون حقيقة الحب والإيثار ، فكل خليل حبيب، وليس كل حبيب خليلاً، لأن الخلّة تحتاج إلى فضل عقل ومزيد علم وقوة تمكين ، وقد لا يوجد ذلك فى كل محبوب ، فلذلك عزّ طلبه وجلّ وصفه. وقد رفع الله عز وجل نبيّه محمداً صلى الله

عليه وسلّم في مقام المحبة فاعطاء الخلّة ليلحقه بمقام إبراهيم ، فكانت الخلّة مزيد المحبة. ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلّم لو كنت متخذاً من الخلق خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله عز وجل... فلما اتخذه خليلاً لم يصلح ان يُشرك في خلّة الخالق ، ثم قال ولكنّ أخوة الإسلام ، فأوقفه مع الأخوة، لأن فيها مشاركة في الحال، كما فعل بهلّى عليه السلام، وعدلّ به عن النبوة كما عدل باهى بكر عن الخلّة. وفي الحديث الآخر ان النبي صلى الله عليه وسلّم صعد المنبر فرحاً مستبشراً فقال: الا إنّ الله تبارك وتعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، فانا حبيب الله عز وجل، وانا خليل الله.

واعلم انه ليس بين الأخوين والصاحبين رياء في أعمالهما ، وليس بين الرجل وأهل بيته، ولا بين المسافر ورفقائه رياء ولا سمعة ، ولا عليه منهم اختفاء ولا خلوة ، فإن صحبه أخوه هذا في سفر كانت حرمة عليه الزم، وحقه أوجب، فينبغي أن لا يخالفه ولا يعترض عليه، إن أحب النزول في منزل لم يكره أخوه ذلك ، وإن اختار أحدهما الرحيل لم يحب الآخر المقام ، وإن سار أحدهما لم يقف صاحبه ، وإن استراح الآخر وقف له رفيقه، وإن اشترى شيئاً لم يبنه عنه، ولا يستأثر بمطعم ولا مشروب عليه بل يؤثره بذينته. وفي الخبر ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه، وروينا أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه دخل غيضة مع بعض أصحابه، فاجتت منها سواكين من أراك، أحدهما معوج والآخر مستقيم، فحبس المعوج لنفسه ودفع المستقيم إلى صاحبه، فقال يا رسول الله انت كنت أحق بالمستقيم، فقال ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار، إلا سأل الله عن صحبته، هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه. ومن كان ناظراً في أخوة أخيه أو في صحبته إلى كثرة أعماله، أو واقفاً مع أكمل أحواله، دل على جهله بهذا الطريق، وإنما المعول على حقائق القلوب وسلامة العقول لأن إليها الأمر مردود.

وقد جاء في مخالطة المسلمين، وفي الأكل مع الإخوان، والاختلاط بالعامّة، والمشى في الأسواق، واشتراء الحوائج، وحملها للتواضع، ما يكثر رسمه وطول وصفه. وكذلك كان سيرة الصحابة وشيعة التابعين بإحسان، منهم عمر رضى الله عنه، كان يحمل القرية على ظهره لأهله، وهلى رضى الله عنه، كان يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول :

لا يُنقص الكامل من كماله * ما جرّ من نفع إلى عياله

ومنهم أبيّ وابن مسعود وحذيفة وأبو هريرة، كانوا يحملون جِزَمَ الحطب وجِرَبَ الدقيق على اكتافهم وظهورهم، وسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم، كان يشتري الشيء فيحمله بنفسه، فيقول له صاحبه اعطني أحمله عنك، فيقول صاحب الشيء أحق بحمله، وكان الحسن بن عليّ عليهما السلام يمر على السوّال في الطريق وبين أيديهم كِسْرَ ملقاة في في الأرض فيسَلِّم عليهم، فيقولون هَلْم الغداء يا ابن بنت رسول الله، فيُثنى رجله عن بغلته، وينزل فيقعده معهم على الأرض ويأكل، ثم يركب ويقول إن الله تبارك وتعالى لا يحب المستكبرين، ثم يدعوهم بعد ذلك إلى منزله، فيقول للخادم هَلْمي ما كنت تدخرين، فيأكلون معه.

وربنا في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنّف ثلاثمائة وستين مصنفاً في الحكمة، حتى ظن أنه نال منزلة عند الله تعالى، فأوحى الله إلى نبيّه، قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقاً، وإنى لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال فتخلّى وانفرد في سرّب تحت الأرض، وقال قد بلغت محبة ربي، فأوحى الله عز وجل إلى النبي قل له إنك لم تبلغ رضاي، قال فدخل الأسواق، وخالط العامة وجالسهم، وأكل الطعام بينهم، ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تبارك وتعالى الآن بلّقت رضاي. فلو أيقن البائس المتصنّع للخلق، الأسير في أيديهم، الرهين لنظرهم، أن الخلق لا يُنقصون من رزق ولا يزيدون في عُمر، ولا يرفعون عند الله ولا يضعون لديه، وأن هذا كله بيد الله عز وجل لا يملكه سواه، ولو سمع خطاب المولى لاستراح من جهد البلاء، إذ يقول الله عز وجل إن الذين تدعون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه مع قوله تعالى إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، فلو عقل ذلك لاطرح الخلق عن قلبه، اشتغلاً بمقلّبه، ولأعرض عن الناس بهمّة نظراً منه إلى مهمّة، وأظهر حاله وكشف أمره تقويّاً بربه، وغنيّة بعمله، فلم يُيال أن يراه الناس على كل حال يراه فيه مولاّه، إذ كان لا يعبد إلاّ إيّاه، ولا يضره ولا ينفعه سواه، فعمل ما يصلحه وإن كان عند الناس يضعه، وسعى فيما يحتاج إليه وإن كان عند المولى يُزري عليه، ولكن ضعّف يقينه فقوى إلى الخلق نظره، وأحب أن يستتر عنهم خبره، لإثبات المنزلة عندهم، ولاستخراج الجاه لنفسه، فموّه بحالٍ على من لا حال له، ووهم بمقام عند من ليس له مقام،

واعتقدوا فضله بذلك لنقصهم، وتوهموا به علمه لجهلهم، ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم. حدثونا عن يونس بن هبة الأعمى قال قال لى الشافعي رضى الله عنه: والله ما أقول لك إلا نصحا، أنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما يصلحك فافعله. وحدثونا عن الثوري قال: رضا الناس غاية لا تُدرَك، فأحمقُ الناس مَنْ طلب ما لا يدرك. وقد قال بعض الحكماء في معناه قولاً منظوماً :

من راقب الناس مات غمًا * وفاز باللذة الجسور

ونظر أبو محمد سهل إلى رجل من الفقراء فقال له اعمل كذا وكذا، فقال يا أستاذ لا أقدر على هذا لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه فقال لا ينال العبد حقيقةً من هذا الأمر حتى يكون باحد وصفين: عبداً يُسقط الناس عن عينه لا يرى في الدار إلا هو وخالفه، وأن أحداً لا يقدر أن يضره ولا ينفعه، أو عبداً أسقط الناس عن قلبه فلا يبالي بأى حال يرونه... وحدثونا عن إمام الأئمة الحسن بن يسار المصري رحمه الله، أن رجلاً قال له يا أبا سعيد، إن قوماً يحضرون مجلسك ليس بغيتهم الفائدة منك ولا الأخذ عنك، إنما همهم تتبع سقط كلامك وتمتلك في السؤال ليعيبوك بذلك، فتبسم الحسن ثم قال هون عليك يا ابن أخي، فإنني حدثت نفسي بسكنى الجنان فطمعت، وحدثت نفسي بمعانقة الحور الحسان فطمعت، وحدثت نفسي بمجاورة الرحمن فطمعت، وما حدثت نفسي قط بالسلامة من الناس، لأنى قد علمت أن خالفهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم لم يسلم منهم، فكيف أحدثت نفسي بالسلامة منهم؟ وبمعناه ما روى عن موسى صلى الله عليه وسلم، أنه قال: يارب احبس عنى السنة الناس، فقال الله تبارك وتعالى: يا موسى، هذا شيء لم أفعله بنفسى فكيف أفعله بك، وفي لفظ آخر: لو خصصت بهذا أحداً لخصصت به نفسى. وقد كان أبو الفرداء رضى الله عنه يقول ما من يوم أصبح فيه حيا وأمسى ولا يرمى في الناس بداهية، إلا عدته نعمة من الله تعالى على، وأنشد :

وإن امراً يُمسى ويصبح سالماً * من الناس إلا ما جنا لسعيد

وقد جعل الله تبارك وتعالى في المخالطة للمؤمنين من البركة ما لو لم يجيء فيه الأثر إلا هذا كان فيه كفاية. وروينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول اسقوني من هذا الذى يشرب منه الناس، التمس بركة أيدى المسلمين. وروينا فى الخبر خير الأصحاب عند الله عز

وجل أرفقهم بصاحبه، وخير الجيران أرفقهم بجاره، وإياك أن تصحب جاهلاً فتجهل بصحبتة، أو غافلاً عن مولاہ متبعاً لهواه فيصدك عن سبيله فتردى، كما قال سبحانه وتعالى 'فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون'، فأول الاستقامة صحبة العلماء بالله عز وجل، وقال تعالى 'ولا تطع من أظفنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه'، وقال تعالى 'فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى'، أى فتكون ربياً، وقيل فتهلك. وقال تعالى 'فأعرض عن من تولى عن ذكرنا'، ففى دليله الإقبال بالصحبة على من أقبل إلى ذكره تعالى، والإعراض عن معرض عن وجهه، فلا تصحب إن لم يقبل عليك كما قال الله عز وجل 'واتبع سبيل من آتاك من الناس خمس: المتدع، والغاسق، والجاهل، والحريص على الدنيا، والكثير الغيبة للناس، فإن هؤلاء مفسدة للقلوب مذهبة للأحوال، مخرجة فى الحال والمآل... وقد كان سفيان الثوري رحمه الله يقول: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. وقال سعيد بن المسيب: لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة. وقد كان صعصعة بن صوحان يقول: إذا لقيت المؤمن فخالطه مخالطة، وإذا لقيت المنافق فخالفه مخالفة. وقد قال أحسن الواصفين فى وصف أوليائه المتقين 'وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، أى سلاماً، الألف بدل من الهاء لاندواج الكلم، والمعنى أى سلمنا من إثمكم وسلمتم من شرنا، وقد كان أبو الدرداء يقول فى زمانه: كان الناس ورعاً لا شوك فيه، وهم اليوم شوك لا ورق فيه، إن ناقدهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، فأعرضهم من عرضك ليوم ففرك. وكان يقول كل يوم أصبح لا يرمىنى الناس فيه بداهية أعدّه نعمة من الله تعالى على. وقال حكيم الحكماء صلى الله عليه وسلم من خالط الناس وصبر على أذاهم أفضل ممن لم يخالطهم ولم يصبر على أذاهم. وقال العلامة ذو الجلال والإكرام 'أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة'، أى يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيئ. وقال عز وجل فى الكلام المفسر 'ادفع بالتي هى أحسن'، يعنى بالكلمة الحسنى، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم'، ثم قال عز وجل 'وما يلقاها' يعنى الكلمة، 'إلا الذين صبروا' أى على أمر الله تعالى وعلى الفيض وعن الغضب، 'وما يلقاها إلا لحوظ عظيم'، أى من العلم والعلم، وقيل لحوظ عظيم عند الله عز وجل من النصيب والجزاء. وقد قال لقمان الحكيم قولاً متوسطاً: يا بني لا تكن حلواً فتبلع، ولا مرأاً فتلفظ. المعنى لا تكن الناس من نفسك، ولا تتابعهم فى كل شيء فلا يبقوا عليك وينبسطوا إليك، ولا تنافرهم

وتخالفهم في كل شيء. فيجانبوك ويرفضوك فيقعوا فيك. وقال بعض السلف: لا تصحب إلا مريداً، وكل خليل لا يريد ما تريد فانبذْ عنك صُحبته. وقال بعض علماء العرب: الصاحب كالرقعة في الثوب، إن لم تكن من جنسه شانتته. وقال بعض الحكماء: كل إنسان مع شكله كما أن كل طير مع جنسه. وقد كان مالك ابن دينار يقول مثل هذا، وقد لا يتفق اثنان في عِشْرَة ودوام صُحبة إلا وفي أحدهما وصفٌ من الآخر، وإن أشكال الناس كاجناس الطير. قال ورأى يوماً غراباً مع حمامة فعجب من ذلك وقال: كيف اتفقا وليسا من شكل. قال ثم طارا فإذا هما امرجان، فقال: من ههنا اتفقا. يُقالُ إذا اصطحب اثنان برهة من الزمان ولم يتشاكلا في الحال، فلا بد أن يفترقا. وقد أنشدنا بعض العرب لبعض الحكماء في معناه:

وقائلٍ لما تفرقتما * فقلتُ قولاً فيه إنصاف

لم يكُ من شكلي ففارتقُ * والناس أشكال والآف

وقد روينا في حديث أن الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. قيل معناه في المذهب والخلق. وفي هذا الخبر زيادة -ولو أن مؤمناً دخل إلى مجلس فيه مائة منافق، وفيه مؤمن واحد، لجاى حتى يجلس إليه، ولو أن منافقاً دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن، وفيه منافق واحد، لجاى حتى يجلس إليه. وليس الائتلاف يقع بنفس الاجتماع ووقت الاتفاق، فإنما الائتلاف يكون بمجالسة الحال ومشاكلة الأخلاق، لأنهم شبهوا اجناس الناس باجناس الطير، وقد يتفق الطيران من جنسين، ويتجامعان في مكان، فلا يكون ذلك ائتلافاً في الحقيقة، ولا اتفاقاً في الخلقية، لتباينهما في التشاكل. ولا يتبين ذلك في الاجتماع، وإنما يتبين في الطيران إذا كانا معاً، فأماً إذا ارتفع أحدهما ووقع الآخر، وعلا أحدهما وقصر الآخر، فلا بد من افتراق حينئذٍ لفقد التشاكل، ولا بد من مباينة لعدم التجانس عند الطيران، فهذا مثال ما نكرناه من الافتراق لعدم حقيقة تشاكل الحال.

واعلم أن الائتلاف والاختلاف يقع بين اثنين إذا اشتركا وافترقا في أربعة معان: إذا استويا في العقود، واشتركا في الحال، وتقاربا في العلم، واتفقا في الأخلاق، فإن اجتماعاً في هذه الأربع فهي التشاكل والتجانس، ومعه يكون الائتلاف والاتفاق. وإن اختلفا في جميعها فهو التباعد والتضاد، وعنده يكون التباين والافتراق. وإن اتفقا في بعضها واختلفا في البعض كان بعض الاتفاق وبعض الاختلاف، فيوجد من الائتلاف بمقدار ما وُجد من

التعارف، ويوجد من الاختلاف نحو ما فُقد من الاتفاق، وهذا هو تناكر الأرواح لتباعد نشأتها وتشامها في الهواء. وذلك الأول هو تعارف الأرواح بقرب التشام باجتماع الأوصاف.

وحدثت عن يعقوب ابن أخى معروف رحمهما الله، قال جاء الأسود بن سالم إلى عمى معروف وكان مؤاخياً له، فقال إن بشر بن العارث رحمه الله يحب مؤاخاتك، وهو يستحى أن يشافهك بذلك، وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويفتد بها، إلا أنه يشترط فيها شروطاً: لا يجب أن يُشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة فإنه يكره كثرة الالتقاء. فقال معروف رحمه الله: أما أنا فلو أحببت واحداً لم أحب أن أفرقه ليلاً ولا نهاراً، ولزرته فى كل وقت، ولا تترت على نفسى فى كل حال. ثم نكر من فضل الأخوة والحب فى الله عز وجل أحاديث كثيرة، ثم قال فيها: وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين على عليه السلام، فشاركه فى العلم، وقاسمه فى البدن، وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه، وخصه بذلك لمؤاخاته. وإنى أشهدك أنى قد عقدت له أخوة بينى وبينه، وأعتقده أخاً فى الله عز وجل لرسالاته، ولسالتك على أن لا يزورنى إن كره ذلك، ولكنى أزوره متى أحببت، وأمره بلقائى فى مواضع نلتقى فيها، وأمره أن لا يخفى على شياً من شأنه، وأن يطلعنى على جميع أحواله. قال فانصرف بذلك أسود بن سالم فاخبره بشراً فرضى بذلك وسر به. فهذا أسود بن سالم أحد عقلاء الناس وفضلانهم فكان فيه اتساع للأصحاب وصبر عليهم، وهو الذى أشار معروف به على الرجل الذى سأله مستشيراً، فقال يا أبا محفوظ، هذان الرجلان إماما هذا البلد فأشِرْ على أيهما أصحب، فإنى أريد أن أتأدب به: أحمد بن حنبل أو بشر بن العارث رضى الله عنهما. قال له معروف لا تصحب أحدهما، فإن أحمد صاحب حديث، وفى الحديث اشتغال بالناس، فإن صحبتك ذهب ما تجد فى قلبك من حلالة الذكر وحب الخلوة، وأما بشر فلا يتفرغ لك ولا يقبل عليك شغلاً بحاله، ولكن اصحب أسود بن سالم فإنه يصلح لك ويقبل عليك. ففعل الرجل ذلك فانتفع به، وإنما ضمه معروف رضى الله عنه إلى أسود دونهما، لأنه كان أليق بحاله وأشبه بوصفه. وكذلك رويانا فى حديث المؤاخاة الذى آخى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فأخى بين اثنين شكّين فى العلم والحال، آخى بين أبى بكر وعمر وبين عثمان وعبد الرحمن وهما نظيران، وآخى بين سلمان وأبى الدرداء وهما شكلان فى العلم والزهد، وآخى بين عمّار وسعد وكانا نظيرين، وآخى بين على وبينه رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا

محمد وآله أجمعين، وهذا من أعلى فضائله، لأن عمله من علمه، وحاله من وصفه، ثم آخى بين
الغنى والفقير ليعتدلا في الحال، وليعود الغنى على أخيه الفقير بالمال.

وقال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري إذا آخيت أحداً في هذا الزمان،
فلا تعاتبه على أمر تكرهه منه، فإنك لا تأمن أن يعينك بشرّاً من الأمر الأول. قال أحمد فجزيت
فوجدته كما قال. وقال بعض العلماء: الصبر على مريض الأخ خيراً من معاتبته، ومعاتبته
خير من القطيعة، والقطيعة أحسن من الوقيعة. وقال بعضهم: كدر الجماعة خيراً من صفو
الفرقة، ومثل الأخوة مثل الزجاجاة الرقيقة مالم تحفظها وتوقها كانت معرضة للآفات.
واستتمام الإخاء إلى خير الوفاة أشد من ابتدائها في حال الحياة. وقال بعض الأبياء:
الناس أربعة: فواحد حلوا كله فهذا لا يُشبع منه، وآخر كله مرّ وهذا لا يؤكل منه، وواحد فيه
حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه إذا احتجت إليه. وقال
بعض الأئمة: الناس أربعة: فاصحب ثلاثة ولا تصحب واحداً: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى
فهذا عالم فاتبعه، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فهذا نائم فنبهوه، ورجل لا يدرى ويدرى أنه
لا يدرى فهذا جاهل فعلموه، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فهذا منافق فاجتنبوه. ومثل
هذا الرابع قول سهل: ما عصى الله عز وجلّ بمعصية شرّ من الجهل، وأعظم من الجهل الجهل
بالجهل. وقال بعض الأبياء: الناس ثلاثة، فاصحب رجلين واهرب من الثالث: رجل أعلم منك
فاصحبه تتعلم منه، ورجل أنت أعلم منه يقبل منك فاصحبه تتعلمه، ورجل معجب بنفسه لا يعلم
عنده ولا تعلم فاهرب من هذا. وكان أبو مهران يقول: أخرج من منزلي فانا بين ثلاثة: إن
لقيت من هو أعلم مني فهو يوم فائدتي اتعلم منه، وإن لقيت من هو مثلي فهو يوم مذكرتي،
وإن لقيت من هو دوني فهو يوم مشوبتي، أعلمه فاحتسب فيه الأجر. وقال أبو جعفر محمد
بن علي لابنه جعفر بن محمد عليهم السلام: لا تصحب من الناس خمسة واصحب من
ثنت: الكذاب فإنك منه على غرر، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب،
والأحمق فإنك لست منه على شيء، يريد أن ينفعك فيضرك، والبهيل فإنه يقطع بك أحوج ما
تكون إليه، والجهان فإنه يُسلمك وماله ونفسه عند الشدة، والفاجر فإنه يبيعك باكلة أو باقل
منها.

واعلم أنّ الأخوة في الله عز وجل، والمحبة في الله تعالى، وحسن الصحبة، كانت طرائق

السلف الصالح، قد درست اليوم محاجَّها وعَقَّت آثارها، فمن عمل بها فقد أحيائها، ومن أحيائها كان له مثل أجر مَنْ عمل بها، فمن رزقه الله أخوا صالحاتمئن به نفسه ويصلح معه قلبه فهي نعمة من الله عز وجل مضافة إلى محاسن نِعَمه، والحمد لله وحده وصلى على سيدنا محمد وآله.

الفصل الرابع والأربعون

فيه ذكر التزويج وتركه إيهما افضل. ومختصر احكام النساء في ذلك

قال سبحانه وتعالى **وانكحوا الأيامى منكم الآية**، فأمر المحتاجين وندبَ المعصومين، فالنكاح فرضٌ مع الحاجة، وسنةٌ على الكفاية، ثم وعدهم تعالى الغنى على الفقر، فالغنى على الغنى يجعله على نحو الفقر من الفقير، فقد يكون فقيراً من الزجر فيغنيه بالأجر، ويكون فقيراً من عدم الحكم فيغنيه بإيجاب الحكم عليه، ويكون فقيراً بالضيقة والشتات وفقد المنزل والأثاث فيغنيه بوجود ذلك. وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم **والله واسع عليم**، فهو واسع لغناهم عن معاني فقرهم عليهم بحالهم، وما يصلحهم فيما لا يعلمون على مقادير رتبهم. وروى الحسن عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا. وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فانكحوه. ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وفي الخبر من نكح لله عز وجل وأنكح لله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى. وهذا أدنى حال تُنال به الولاية، لأنها مقامات، لكل مقام عمل من الصالحات. **إلا أنا** روينا أن بشر بن الحارث قيل له إن الناس يتكلمون فيك، فقال وما عسى يقولون، قيل يقولون إنك تارك السنة، يعنون النكاح، فقال قل لهم إني مشغول بالفرض عن السنة. وقال مرة ما يمنعني من ذلك إلا آية في كتاب الله تعالى قوله **ولهن مثل الذي عليهن**، ولعسى أن لا أقوم بذلك. وكان يقول لو كنت أعمل بجاجة لخت أن أكون جلابداً على الجسر. هذا يقوله في سنة عشرين ومائتين، والحلال والنساء أحمد عاقبة، فكيف بوقتنا هذا؟ فالأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمن الفتنة ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه فيشتت همته، أو تقطعه عن حُسن الإقبال على الخدمة من مسامرة الفكر ومحادثة النفس